موتى يقلقون المدينة

عمران عز الدين



قصص

موتى يقلقون المدينة

قصص

تأليف: عمران عز الدين

تصميم الغلاف: باسم صباغ

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

دمشق -ص ب: /9838/

هاتف-فاكس: /6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

موتى يقلقون المدينة

قصص

عمران عز الدين

قررت أن أموت لمرة واحدة، بدلاً من الموت سبع مرات في الأسبوع.

«رياض صالح الحسين»

يا ربّ حيٍ ركام القبر مسكنه
ورُبّ ميْتٍ على أقدامه انتصبا

«نزار قباني»

تحت سيقان الموتى تماماً،
ثمة أكوام هائلة من النشارة

بقلم: أنيس الرافعي*

القصة مثل غجري لا يعبر بلداً مرتين، لذا يجدر بأي قاص يحترم الطبيعة الزئبقية والمراوغة لهذا الفن الجميل الذي طالما كان طائراً لاجئاً في شجرة السرد، أن لا يكل من البحث عن المساحات الفارغة والأراضي غير المخذولة للتخييل القصصي.

وهذا ما قام به مع سبق الإصرار والترصد صاحب "موتى يقلقون المدينة"، لأن في عرف القاص السوري المبدع عمران عز الدين إذا اكتمل بهاء القصة لا تعود صالحة سوى للتمزيق، ولأن لا أحد مثله بقادر على رش القلق على الحكايات والارتياب في المنطق الناظم لها.

والهدف: نجاة القصة بأي ثمن من ميتافيزيقا الوصول.

ومن هنا جاء هذا "الكتاب القصصي" المحكوم بتكرار موضوعتي الحلم و الموت، و الحضور المتعاقب لشخصية "عبد الستار" الفارزة التي نلفيها في غالبية إنتاج المؤلف، وتواتر السمات العجائبية بمختلف تنويعاتها، وهيمنة السخرية السوداء شديدة اللهجة، والمزاوجة بين لغة الداخل ولغة الخارج استناداً إلى التفات الضمائر وتعددية المنظور السردي، وتناظرات البناءات المعمارية التي وإن كنا لا نراها بيد أنها تحدد الشكل وطابعه لكونها تلحم العمود الفقري للـ "الكتاب" مثل العوارض الممسكة بالمباني شاهقة الارتفاع.. جاء منخرطاً في عمق الكتابة من داخل "شعرية الاختلاف"، ونأى بنفسه عن "شعرية المماثلة".

اختلاف مرّشد ومعقلن إذا صح التوصيف، لأن عمران عز الدين خلق لنفسه بسرعة وذكاء معاييره الخاصة في مجموعته البكر "يموتون وتبقى أصواتهم"، غير أن طريقة الكتابة في مجموعته هذه انتهت بتشكيل خطر على هذه المعايير ونسفتها لئلا يسقط عموديا في "النموذج".

وقد تأتى له هذا الأمر بلا جعجعة تجريبية فارغة و دون اللجوء إلى كسر العمود الفقري للحكاية. إذ عمد إلى دفن معرفته التقنوية تحت جلد اللغة وخاطهما في سبيكة واحدة، الشيء الذي أفضى إلى غياب غرز الخياطة التي غالباً ما نلفيها ناتئة على سطح النصوص

التي تمارس التجريب بطريقة غير تجريبية وفي غياب العدة الأدبية الثقيلة الكفيلة بانجاز أمر جمالي حاسم من هذا الطراز.

وضمن ذات الأفق الملمع إليه، يتوجب الإلفات إلى خصيصة مهمة في مجموعة "موتى يقلقون المدينة"، هي "سردها البصري المسجل". والمفهوم هنا مستمد بتحوير بسيط من نظرية المخرج الروسي العظيم أندري تاركوفسكي في كتابه "النحت في الزمن"، لأن السرد في قصص عمران عز الدين مرتهن للوتيرة والشدة والاستمرارية، وهي الإواليات التي يوحدها مفهوم "الإيقاع". إيقاع للمحكي وللأسلوب وللذات الكاتبة يشتغل من داخل الزمن ويتحرك مثل حركة الكاميرا. و "كاميرا القاص" عندما "تسجل" سيرورة الوقائع والأحداث، تثبت تدفق الزمن وسيلانه، ليتحول إلى نقطة ثابتة في رأس أو لاوعي الشخوص، وعند انفراط النقطة تصل القصة إلى مرحلة الانفراج.

من دون ريب، لأن عمران عز الدين يعرف وصية خوليو كورتزار الداعية إلى "احتجاز الزمن، لأن كاتب القصص يعرف أن الزمن لم يكن في يوم من الأيام صديقاً وفياً له ".

وختاماً، يمكن القول بأن عمران عز الدين من خلال هذه الأضمومة، يعيد الكثير من الألق والتميز لطفلة الأدب الصغيرة المشاغبة، لأنه استطاب اللعب في الضفاف المسكونة بالنسبي والهش بعيداً عن كل ما هو نهائي ومكتمل. ولكون مقترحاته وحدوسه الجمالية في "

موتى يقلقون المدينة " هي سليلة " ما تمثله الظنون " لا " ما تناله العيون " كناية عن سعيه الدؤوب للانسلال خلف مصيره وعدم تقاعده عن مهنة البحث والسؤال وشحن قناديل الإبداع في كل مرة بزيت جديد.

في أحد حواراته قال الكاتب الايطالي أنطونيو تابوكي في معرض رد عن سؤال الكتابة: "لا توجد وصفات في الكتابة. إذا كان هناك نجار حكيم، اذهبوا عنده مساء قبل أن يغلق محله وانظروا في أرض حانوته ".

وبالمثل.. سأدعوك أيها القارئ الكريم لتنظر إلى أرض هذه المجموعة، تحت سيقان الموتى تماماً، فثمة أكوام هائلة من النشارة.

* قاص من المغرب

وقائع يوم الأربعاء

في القرية التي كان يقطنها ذات حرمان، كانوا ينعتون يوم الأربعاء بالشؤم، متوهمين بأنّ كلّ ما يقومون به في ذلك اليوم مآله الفشل، وربّما الموت أيضاً!.... هذا ما كان الأهلون موقنين به أباً عن جدّ، ولهذا راحوا يستشهدون بالكثير من الأدلّة المؤكدّة، فأبو بكر السمّان مات في دكّانه صباح الأربعاء، لأنّه ـ آنئذ ـ أعلن على الملأ بأنّ اعتقادهم هذا ينتمي إلى عالم الخرافات. أمّا أمينة، تلك الفتاة الصغيرة، التي خَالَسَتْ أبويها، واتّجهت صوب النبع لتشرب، فلقد لدغتها حيّة، وماتت من توّها!.. في حين أنّ الداية أم عبد الستار خرجت من البيت سهواً ربّما!.. كان هذا ذات أربعاء ممطر، وبعد أن أحكمت باب الكوخ في وجه الدجاجات، اختفت إلى الأبد!.. ثمّ ها هو عبد الستار يضيق بالقرية وأحاديثها، فهجرها، وسافر إلى العاصمة بقصد العمل، على إثر اختفاء أمه!.. ربّما دفعته جمل بعينها إلى اتّخاذ قرار كهذا، إذْ كانوا ينعتونه بالثور، جاء

الثور... ذهب الثور... غاب الـــ... أو نجح الـــ... يـااااا ثورا!..

كعادتها، وعلى حين غرّة، ظهرت أم جابر، لتطالبه بالأجرة المتراكمة، وراحت تهدّد وتتوعّد إن هو تأخّر عن السداد، فتظاهر بالسكر، وأنشأ يترنّح ذات اليمين وذات الشمال، ما أخافها، ودفعها إلى الهرب نحو غرفتها، وهي تلعن الساعة التي جمعتهما!..

عاد إلى الغرفة، مغلقاً الباب وراءه، وتمتم:

ـ " إنها امرأة طاعنة في السنّ ووحيدة!.. ثمّ إنّها لا تطالبني بالأجرة إلاّ لأمر هامّ، كأن تشتري دواءها مثلاً !.. "

توجّه صوب المغسلة، وبلّل كفيه، ثمّ مسّ بهما أرنبة أنفه، ليستعمل المنشفة بعدها. راحت النافذة تناديه، فوضع يده في جيبه، ليخرج علبة التبغ، ويشعل لفافة، ثمّ قذف بنثار التبغ العالق بشفته السفلى، وسحب نفساً طويلاً، فيما غاصت سحنته في صدى همس مديد:

ـ " إلامَ ستطالبني هذه العجوز الشمطاء بالأجرة؟..!.. أليس هناك حلّ؟..!.. حَتَّامَ سأردّد " لو كان.."، وأزدرد ريقي متحسّراً ؟..!.. "

كانت الـــ "لو" في طريقها لأن تضعه على طريق الجريمة!.. إنّها ـ على ما يبدو ـ آخر الحلول التي وقع عليها ذهنه!.. وستكون أم جابر اختياره الأوّل!.. ذلك أنّه كان قد وضع يده بشكل ما، على دليل قاطع بأنّها تنام على ثروة كبيرة!.. إنّه موظّف صغير، وراتبه لا ينهض بأعباء معيشته!.. إنه عاجز عن التحصّل حتى على لفافات التبغ.

لقد قدم إلى المدينة منذ أمد، إذْ ما الذي يمكنه أن يقوم

به في القرية بشهادته التي حملها فوق كتفه وزراً؟..!.. ألم تمنعه الظروف من إكمال تعليمه العالي، فاكتفى بالثانوية، وراح يعمل تحت خانتها، ثمّ ها هي المدينة تسخر من أحلامه الريفية، وتضرب بها عرض الحائط!.. إنّه الآن تحت رحمة ضجيجها، الذي يثقل على المرء بالهموم، ويغتال الأماني النائيات، التي أضحت في حكم الغيب. رباه!.. أيّ شوق هذا الذي ما فتئ يحفر في النفس، إنّه يحنّ إلى أيام القرية الوادعات.. إلى طبيعتها الهادئة والخلابة... سهراتها البريئة... سقاية المزروعات، وأيام الحصاد. آنئذٍ كان الاستيقاظ على زقزقة العصافير ضرباً من الإدمان، فأين هذا كله من هذه المدينة الملعونة، التي لم تورثه إلا الهمّ والوجع ؟..!.. كلّ هذا في جهة، وخديجة في جهة، آه يا بنة المختار، لقد اشتاق المهر الصغير إلى ذلك الوجه الصبوح.... إلى تلك اللحظات التي سرقاها في غفلة عن الأعين، هناك تحت أغصان صفصافة تدلّت أغصانها نحو بركة، راحت تتوسّط أرضاً، كان الأب يملكها، إنّه الرجل ذاته الذي ضبطه ذات يوم متلبساً، إذْ أمسك به في اللحظة التي كان يقطف فيها قبلة من خدّ الصبية، وها هي لحظات التعذيب والإهانة والضرب، تحضر بتفاصيلها المهينة، من غير أن يستطيع شيئاً حيال اللكمات المتتالية وعصا الخيزران. أما كيف تصادف مقتل كلب الحراسة على يديه بوساطة حجرة، حملها ـ آنذاك ـ ليدافع بها عن نفسه، فهو نفسه لا يدري كيف حصل ما حصل. ومن يومها راح أهل القرية يردّدون وسمه بالثور، بعد أن نعته المختار بهذا الاسم. لكنّه سيعود... عليه أن يعود حاملاً مهر خديجة، ليزفّها

إليه، وليصحبها معه إلى المدينة.
ارتفع مواء قطّ حزين، فتوقّف سيل الذكريات، ورنا إلى الساعة، التي كانت تشير إلى الحادية عشرة، لقد حان الوقت الذي حدّده لتنفيذ ما راح يخطط له على مهل!.. "سامحيني يا أم جابر، إذْ إنّ سعادتي ـ على ما يبدو ـ مرهونة بموتك، فالحياة لا تحتملنا معاً!.." كان يتمتم بهذه العبارات، فيما كانت قدماه تنسحبان متسلّلتين إلى غرفة أم جابر، هناك فوق السطح، لكنّه ما لبث أن ابتعد عن المكان!.. هو لا يستطيع أن يكمل ما بدأه في ذهنه!.. فابتعد نحو غرفته بسرعة، وأشعل ضوءها، اقترب من المرآة، فعكست له وجهاً شاحباً، يعلو هيئة رثة، لم يكن لهذا كلّه معنى أو جدوى، وداهمته رغبة عارمة في النوم، فأطفأ النور، واستلقى على فراشه، ثمّ ما لبث أن غطّ في نوم متقطّع.
وعند الصباح، سيستيقظ عبد الستار، ليتفاجأ بأنّه قد انقلب إلى ثور صغير، فتركبه الدهشة، ويبدأ بشدّ شعره وقرص جسده، على أمل أن يكون ما يحدث له حلماً سمجاً!.. كان الأمر يفوق طاقته على التصوّر، لكن الإسطبل المعتم برائحته الحريفّة، التي جمعت نفاذ البول إلى بذاءة البراز، وشميم العلف، ما يسيل له الأنف، أكدّ له أنّ ما يتعرض له واقعي إلى درجة العري الصفيق!.. فاندفع نحو النافذة ليفتحها، لعله يبصر أحداً، لكنّه تفاجأ بملعب واسع تتسابق فيه الثيران، كانت الناس تهتف بوحشية، فحاول أن يصرخ مستنجداً، علّ أحداً ما يأتي لنجدته، وكان أن تفاجأ بالصوت الذي صدر عنه على شكل خوار أبحّ أخرسه تدريجياً، ثمّ اختار أن يمشي،

ومـرة ثانيـة تفاجـأ بأنّـه لا يملـك إلاّ أن يتقـدّم علـى قـوائم أربعة، بعدها سيحشر نفسـه فـي زاويـة ضيقة، ربّمـا لأنـه كـان يخشـى افتضـاح أمـره، وبمـرارة المغلـوب علـى أمـره سيجهش بالبكاء.

طـويلاً.. طـويلاً سيمكث هكـذا، وسـيحرص علـى ألاّ تصدر عنه أي نأمة كي لا يلفت إليه الأنظـار، لكنّ الخـدر سيركبه، ويتحـرّك رغمـاً ليمـنح دورتـه الدمويـة فرصـة أن تتجـدّد.. كانـت مثانتـه قـد امـتلأت، فامتـدّت يـده بشـكل لا إراديّ إلـى أزرار بنطالـه، ونـدّت عنـه آهـة حـرّى. كـان طنـين الـذباب حـول ذقنـه بإلحـاح مزعجـاً لـه، تمامـاً كحـال الحشرات التـي أخذت تحـوم حـول مؤخّرتـه، ولم يكن ثمة بدّ مـن استخدام لسـانه الطويـل إلـى جانـب ذيلـه المنـتفض فـي إبعادها. وعلـى إثـر ذلـك، سيفتح بـاب الإسـطبل، وكمـا لـو كـان فـي حلـم، سيدلف رجـل متـدثّر بجـورب أسـود يخفـي ملامحه، ويطلب إليه أن يتبعه إلى الخارج، لكنّه سينكمش متكوّمـاً علـى بعضــه... ومنـذ تلـك اللحظـة سـيختفي عبـد السـتار إلـى الأبد!...

* *

لمن تبتسم الملائكة؟..!..

عاد مدير الدائرة، الدائرة التي أعمل فيها كموظّف، من الحجّ. كان قد نهب أموالها، وكتب بخطّ عريض على باب بيته الكبير: "هذا من فضل ربيّ ". لم أذهب مع طاقم الموظّفين لتهنئته بالعودة سالماً، كنتُ مرهقاً، متعباً، تخشى الذبابة أن تقترب منّي، لكنّني أبليت بلاء حسناً في تغطية غياب الجميع، وإدارة أمور الدائرة. تنهّدتُ وأنا أمتطي "السرفيس"، رفض "المعاون" أن يأخذ الأجرة مني، وراح يدسّ قطعاً نقدية في جيبه، عندما وصلت، أعلمتُ السائق بسرقة "المعاون" من الغلّة، إلّا أنّه لم يأبه للأمر، ربّما لأنّه كان مشغولاً بالحديث مع زوجته من جوّاله!..

عندما وصلت إلى الحارة، كانت الناس تغذّ الخطى نحو المسجد، فاعتقلتني الدهشة، ذلك أنّ يوم الجمعة ما يزال بعيداً، حتّى بدا المشهد شبيهاً بمشهد الحشر، كان البعض منهم يصلّي تقرّباً لله، والبعض الآخر لمآرب

أخـــرى، ربّمـــا... ليوهمـــوا النـــاس أنهّـــم شـــرفاء مـــثلاً، وانغمستُ بينهم، لأتفاجأ بـ "تابوت"، زالـت دهشـتي قلـيلاً، وسألتُ أحدهم:

ـ من الميّت يا أخـي؟....

غير أنّه لم يكلّف نفسه عناء الردّ، فجـأةً ارتفـع صـوتُ الخطيب:

ـ يا أمّة الإسلام.. لقد مـات بـالأمس ابـن حـارتكم عبـد الستار بـن محمّـد بـن محمـود، فعلـى مـن يرغـب مـنكم فـي الصلاة عليـه، التوجّـه إلـى المسجد، قبـل أن يـوارى جسـده في التراب. ليُنهي نداءه بخشـوع مـا بعـده خشـوع، ثـمّ راح يتضرّع:

ـ ليغفر الله لـه ولنـا مـا تقدّم من ذنوبنـا ومـا تأخّـر!..

وعادت الدهشة تحتلّنـي، فتمتمـتُ مُستغربـاً: ولكـن هـل يوجـد فـي حارتنـا شـخص آخـر يحمـل الاسـم ذاتـه، الـذي أحملـه أنـا؟.. غريـب!.. لم يكن قد سبق لـي أن سمعت باسـم مطـابق لاسـمي بـين سـكّان الحـارة !.. واشـتدَّ الهـرج بـين المتطوّعين للصلاة على الميت. وقال أحدهم:

ـ لقد كان كريمـاً !..

فيما همي آخر بصوت خفيض:

ـ بل كان مُعقّداً !..

وعقب ثالث:

- لقـد كـان شـكّاكاً، يوسـع زوجتـه الضـرب لـيلاً ونـهاراً!..

أمّا أبو حسن السمّان فقال متحسّراً:

ـ لقد استدان منّي مبلغاً كبيراً، وأردف بمرارة:

ـ وربّما سرق من محتويات الدكّان ؟..!..

في حين راح أخوه يؤكّد:
ـ زوجته ما زالت شابة، ستتزوّج عشيقها بعد موته، لقد ارتاحت المسكينة منه!..

سقطتُ على الأرض، مغشياً عليّ من هول الصدمة، ثمَّ بعد أن استعدتُ وعيي، اقتحمتُ الجمهرة، ووقفتُ أمام الخطيب وجهاً لوجه:
ـ أنا لم أمت يا شيخ، وهأنذا أمامكَ حيّ أُرزق.

لكنّه لم يرد، كانت نظراته مصوّبة على الجسد المسجّى، وهو يتمتم بأدعية وآيات متفرقة من القرآن، فصرخت فيهم محتجّاً:
ـ يا ناس... يا هووووه.!.. صدّقوني.. أنا ما زلتُ حيّاً.

ثمّ أنهلتُ عليهم بالضرب، قرصتهم، شتمتهم بغير جدوى، أخيراً.. وبعد أن نأيتُ عنهم قليلاً، واقتعدتُ الرصيفَ، تذكّرتُ بأنّ إخوتي تقاسموا ليلة البارحة أموالي فيما بينهم، كنتُ كالمشدوه، إلاّ أنّهم لم يعيروني أهمّية، ثمّ انصرفوا إلى بيوتهم، أما زوجتي فراحت تستحمّ وتغنّي بصوت عالٍ، وسألتها:
ـ ما بال إخوتي فيما أقدموا عليه ؟..!..

بيد أنّها لم تردّ عليّ هي الأخرى، ثمّ اتّجهت نحو غرفة النوم، انتصبت كشجرة خريفية أمام المرآة، لتنشّف جسدها، تعطّرت، وسرّحت شعرها، ثمّ أزالت الشعر من تحت إبطيها، وأطفأت النور، لتشعل شمعة كنتُ قد اشتريتها منذ يومين، كي نحتفل بعيد زواجنا الأوّل. طرقَ أحدهم الباب، ركضت وهي تحلّق كفراشة لتفتحه، استقبلت ضيفها بالقبل والابتسامات، دلفا إلى غرفة النوم، رقصا على أنغام الموسيقى، تعرّيا، قبل أن يمارسا

الجنس، أمسَكْتُهَا من شعرها قائلاً:

ـ أيّتها العمياء.. ويلكِ من ربك.. الآن ـ فقط ـ انكشفتِ على حقيقتك!..

كانت شكوكي في محلّها، صفعتها، لكنّها لم تعرني اهتماماً، بل خرّت كدجاجة تحت عشيقها، الذي كان يئنّ كخنزير شبق!..

بعد أن أمضيا معاً ساعة من الزمن، كان وقعها كدهر عليّ، فرّ ذلك الخنزير إلى الخارج، متأبّطاً بنطاله، وهو يصفق بعنف باب البيت وراءه. ركضتُ كي أنالَ منه، بصقتُ على وجهه، لكنّه أكمل طريقه، وهو يحشر رجليه في بنطاله، عدتُ كي أعاتب زوجتي الفاجرة لكنّها كانت قد ولجت الحمّام مرّة أخرى، كي تغتسل ثانية، فأخذتُ سكّيناً قاطعةً من المطبخ، وتوجهتُ صوب الحمام، صرختُ في وجهها، كانت ما تزال تتأوّه، ترتعش، وهي تمرّر أصابعها على المناطق المثيرة في جسدها، اقتربتُ منها، وبعنف وغلّ زرعت السكين في بطنها، سالت دماؤها كالطوفان، شعرت بتشفٍ وأنا أغسل عاري، لكنَّ نشوتي بغسل العار لم تطل، إذ إنّها خرجت من الحمام، نشفت جسدها، وانزلقت في سريرها، وسرعان ما غطّت في نوم عميق.

اندسست في السرير بالقرب منها، أحكمت كلتا يديّ على رقبتها، قلتُ سأخنقها، لكنّها لم تبدِ وجعاً، ولم تصرخ !..

ماذا يجري ؟..!.. تمتمت وأنا أكتم غيظي، ثمّ غادرتُ ذلك البيت الملعون، خرجتُ إلى الشارع، كان الظلام حالكاً، والجوّ بارداً، وقفتُ بالقرب من رجل استقلّ سيارة

أجـرة، حشـرتُ جسـدي معـه فـي تلـك السـيارة، دار بـين السـائق والرجـل حـديث مخيـف، تطرّقـا فيـه إلـى سـارقٍ، استولـى برفقة بعض من أصدقائه، بعد أن قتلـوا الحـارس، على بنك فـي مركـز المدينـة، ثـمَّ سلبوا الأمـوال الموجـودة فيـه. وفـي غمـرة الحـديث، سـحب ذلـك الرجـل مسدّسـاً مـن جيبـه، أمـر السـائق أن يتوقـف عـن قيـادة السـيّارة، وعنـدما توقف، أفرغ رصاصاته في رأس السائق، حاولتُ ثنيه، لم أسـتطع، خـرّ السـائق علـى الأرض، مُضَـرّجاً بدمائـه، وهرب ذلك الرجل بعد أن واراه في التراب، قلتُ لـه وهـو يُسرع في قيادة السيارة:

ـ توقف هنا... سأبلغ عنك الشرطة.

لكنّه واصل القيادة وهو يدخّن بشراهة، كـأنّ شيئاً لـم يكن !..

نزلتُ من السيارة محدودب الظهر، عدتُ مهرولاً إلـى الحارة، وأنا أكاد أنهار ممّا حدث، لمحتُ دكّـان أبـي حسـن السـمّان مضـاءة، اتّجهـتُ صـوبها لأرتـاح عنـده قلـيلاً، وأفضي إليه بما يعتلج في نفسي، لكنّه لم يكن موجوداً، بل كان أخاه الذي يصغره مع صديق لـه، أعـرف هذا الأخير تماماً، كـان قد خـرج مـن السـجن منذ بضـعة أيّـام، بعد أن أنهى مدّة السجن التـي كـان قد حوكم علـى أساسـها، إذ تـمّ القـبض عليـه فـي وضـع شـائن، وهـو يغتصـب ابنـة إمـام المسجد، التي كانت تحبّه، وتُصرّح لزوجتي كلّ يوم بحبّها له. سألته عن أخيه أبي حسن، أن أين هو الآن ؟.. لكنّه لـم يردّ عليّ أيضاً، وبدأ هو وصديقه بوضع محتويات الدكّان في كراتين وصناديق، ثـمّ قامـا بوضـعها فـي سيارة، أطفـأا النور، وغادرا المكان سريعاً !..

عدتُ إلى البيت، فتحتُ الباب، كانت زوجتي ما تزال نائمة، تشخر شخيراً متتابعاً، مصدرة صوتاً كصوت قطار متعب من طول الخدمة. فيما كانت ابنتي الصغيرة مستيقظة تبكي بشدّة، فحضنتها برفق وقبّلتُ خدها.

فتوقّفتْ عن البكاء، وابتسمتْ في وجهي المبلّل بالدموع!..

**

أجوبة على أسئلة الوصية

حَنَّ ابني على ما يبدو، إلى توبيخي المستمرّ له، بسبب فشله في كلّ المجالات التي عمل فيها، وقرّر في لحظة يأس أن يزورني في قبري، حاملاً إليّ أجوبة كنت قد طلبتها منه أثناء كتابتي للوصية، وكانت أسئلة طالما حيّرتني وأقلقتني، عما ستؤول إليه الحال من بعدي.

قال إنّه تعذّب كثيراً - الكلام لابني طبعاً - قبل أن يحصل على التراخيص الكثيرة التي تخوّله زيارة قبري!.. ثمّ تحدّث عن جنودٍ يتناولون الإفطار، بعد تحيّة العلم، على مائدة واحدة مع غرباء، كانوا يسمّون فيما مضى بالأعداء المتربّصين.

أخبرني حارس المقبرة أنَّ شخصيّة على درجة كبيرة من الأهمّيّة ستزور قبري اليوم، فلم أصدّقه، ونبّهته إلى ضرورة التقيد بواجباته على الوجه الأكمل، لأنّني لا أحبّ هذا النوع من المزاح الثقيل، فضلاً عن كرهي الشديد لجميع الأشخاص المهمّين والمسؤولين، الذين مجرّد

ذكرهم أمامي، كفيل بتعكير مزاجي وصباحي إلى حين. لم أكد أنهي كلامي حتّى سمعت مزامير قوية، صفارات إنذار، وأعيرة نارية، لسيارات جيب مفيمة قادمة باتّجاهي، كان ذلك المسؤول الذي تصدر الموكب شخصاً غريباً، تأمّلني بقرفٍ من رأسي حتى قدمي كثيراً، مستطلعاً مرة، ومتفحّصاً مرّة أخرى، وعندما كان يضحك، كان جميع حرّاسه يضحكون، وإذا ما صرخ، تكوم بعضهم على بعض كفئران مذعورة. وبدون سبب لانَ كلامه معي، ثمَّ ربتَ على ظهري، وكأنّه تذكّر شيئاً ما، وبادرني:

ـ ما أخبار جيرانك الموتى ؟..!..

قلت له: بخير!..

استدرك كالطامع في إجابة غير مقتضبة:

ـ كيف ؟..!..

قلت:

ـ لا ينقصهم شيء، وكلّ في حاله.

فقاطعني قائلاً بنبرة حادّة ولهجة تحذيريّة:

ــ جيرانك الموتى يقلقون أسيادهم الأحياء، الذين يسكنون فوقهم، بثرثراتهم وتجمّعاتهم الرامية إلى زعزعة استقرارهم. وأردف متعشماً:

ـ بناءً على ذلك، وكوننا تأكّدنا من سيرتك الذاتية، وعدم ارتباطك بنشاط من هذا النوع، سنطلب منك كتابة تقرير يوميّ، ونجزل لك العطاء كلّما كانت المعلومة التي تتحفنا بها قيمة، هه... ماذا قلت ؟..!..

أجبته يائسًا ومدركاً المصير الذي سأنتهي إليه:

ـ آسف يا سيدي.. لا أستطيع.. لستُ الشخص الذي